٤ ـ المسرح المصرى
والدرامة المنظومة
للأستاذ دريني خشبة

كان شوقي العظيم ـ عليه رحمة الله ـ لا يعجبنا !

وكنا نتهم شوقي بأنه كان يعيش معنا بجسمه ، ومع شعراء الأجيال السابقة بروحه وفنه . . . فهو يردد أوزانهم ويقلد قصائدهم ، ويتخذ مطالعهم ، ويغزل في أول منظوماته كما كانوا يغزلون ، ويعارض الحصري والبوصيري وأبا تمام والبحتري

كنا نعيب شوقي لأنه كان يصنع هذا ، وكنا نعيبه لأنه لم ينظم للمسرح ، فلما سمع إلينا ونظم للمسرح أخذنا عليه المآخذ ، وعددنا عليه الهفوات ... والرجل العظيم عليه رحمة الله يصبر على ذلك ويبتسم ، فلا يضيق بالنقد ، ولا ينقم على النقاد ، بل يبطل حجتهم بإخراج القطعة بعد القطعة ، ونظم الغرة تلو الغرة ، النقاد الظالمون ، لا غفر الله لهم ولا سامحهم ، وإن كنت منهم ، يلجّون في غيهم ، ولا يعجبهم من شوقي العظيم العجب ، حتى أراحهم الله من شوقي ، فنظروا حولهم ، فاذا هم لم يستريحوا ، وإذا هم يشعرون بفدح الخسارة التي مُنى الأدب العربي بها ، والتي لم يستطع أن يعوّضها هذا الجيش العرمرم من الشعراء والشويعرين والمتشاعرين بمن فيهم من زيد ومن عمرو ، ومن فيهم من هذا الذي كنا ، في نوبة من الحماسة ، نفضله على شوقي ، ونزيف له أكاليل الغار ، فلما مات شوقي ، إذا إكليل الغار تمسخه الأقدار فيكون حزمة من القش . . . وإذا نحن نعترف في ذهول وحزن بأن الشعر العربي — أو الأدب العربي — قد أصيب بنكسة شديدة وارتكاس مؤلم ، لأن النهضة التي بدأها شوقي وتركها وهي في المهد ، لم يُهيَّأ لها الشاعر الذي يرعاها ويبلغ بها شأو الطفولة ... ولا نقول الصبا ولا نقول الشباب ...

تلفتنا حولنا فرأينا الشعر العربي يعود إلى حدوده الضيقة التقليدية ، ورأيناه لا يعدو القصائد والمقطوعات والموشحات ، ورأينا تلك البداية المباركة التي بدأها شوقي تنطوي على نفسها فتصبح من المخلفات الأثرية في المسرح المصري ، حتى أوشك الممثلون الأفذاذ الذين أدوا الشوقيات الرائعة ينسون أدوارهم ، وحتى أوشك الناس ينسون تلك الشوقيات

ومع هذا فما زلنا نسمع من يجرؤ على التشدق بأنه أشعر الشعراء وسيد الأدباء ، لا لشيء إلا لأن شعره يعجبه هو وإن لم يرق أحداً من الناس ، فان سألته وهل حاولت ما حاول شوقي ؟ سألك وماذا حاول شوقي ؟ شوقي المقلد . . . شوقي الرجعي . . . شوقي الصدَدي . . . شوقي الذي لم تكن فيه روح الشعر وإن

أما المازني فلن يموت أبداً ، وهل يموت رجال الأقلام والآراء ؟

المازني من أمجاد مصر الأدبية ، وصفحة واحدة من أصغر كتاب ألفه المازني أبقى على الزمن من جميع المناصب ، والله عز شأنه أقسم بالقلم ولم يقسم بالجاه ولا بالمال

وهل كانت مصر ترضى أن يصير المازني إلى وظيفة تقبره كما قبرت الوظائف مئات من المفكرين بهذه البلاد ؟

اقترحت مرة على صفحات الرسالة أن تقرر الدولة معاشاً للأستاذ المازني ، بحجة أنه أدى للأدب خدمات لم يؤدها من تمتعوا بكرم الدولة باسم الأقدمية في الوظائف

وأنا في هذه اللحظة أسحب ذلك الاقتراح ، فلن يجوع المازني وفي يده قلمه ، ولن يشيخ قلم المازني ولو صار صاحبه في ضمور طيف الخيال .

كلمة صريحة الى الدكتور طه حسين

ولكن ما الذي آذاك أيها الأستاذ الجليل من تلك الغمزة المازنية ؟ ما الذي آذاك منها وهي حق في حق ؟

أتريد أن نعفيك من النقد الأدبي ؟

أتريد أن نتوهم أنك كنت معنا فَطِرت عنا ؟

أيرضيك أن نتناسى اسمك في المناوشات الأدبية ؟

إن كان هذا ما تريد فأنت وما تريد ، ولكننا لن نحترم إرادتك إلا كارهين ، لأننا نرفض تسليمك إلى الحكومة بأي ثمن ، وسنجاهد إلى أن نستردك ، فجهز نفسك لوصل حاضرك بماضيك ، في خدمة الأدب الرفيع .

زكي مبارك

أجاد بهرج النظم . إلى آخر تلك المهاترات الأدبية التي لم نتورع من إهدائها إلى شاعرنا العظيم حتى بعد أن ترك لنا الدنيا لنملأها نحن بالكمال الذي طالبناه به ...

ولست أدري ماذا يصرف شعراءنا — أصلح الله بالهم — عن النظم للمسرح ، ومنهم طائفة مثقفة واسعة الاطلاع عظيمة الدراية بالأدب الأوربي ، اطلعت من غير شك على درامات شيكسبير وبن جونسون ومارلو وغيرهم من الشعراء المسرحيين ، وعرفت ما أفادته اللغة الإنجليزية وغير اللغة الإنجليزية من الدرامات المنظومة ، وما فتح الله على أيديهم للشعر الإنجليزي وغير الشعر الإنجليزي من هـذا الفتح العظيم الذي كانت آيته ذلك الشعر الحر The Blank Verse الذي لا يعرف القافية ولا يتقيد بها ، بل ينطلق من الروح أنغاماً سحرية مشرقة ذات بهاء وذات لألاء ، دون أن تذهب بهجتها في هـذا الاطراد الطويل الممل الذي تجلبه القافية العربية

وقد يعترض معترض بأننا ندعو إلى شيء فرغ غيرنا منه ، حينما ندعو شعراءنا إلى نظم الدرامات للمسرح المصري . . . إذ ما حاجة هـذا المسرح إلى الدرامات المنظومة في عصر سار فيه الأدب الواقعي ، وتحرر فيه التأليف المسرحي من القيود المادية التي كانت تجعل أداءه بطيئاً وحواره مملولا فيه كلفة وفيه تصنع . وهو اعتراض مردود ... ويرده أن الأدب المسرحي الذي ندعو إلى إدخاله في الأدب العربي يجب أن يدخل إلى هـذا الأدب بكل أنواعه التي عرفهـا الأدب الاوربي ، ثم نحن ندعو إلى وجوب نهضة الشعر العربي وتوسيع آفاقه . . . ولن تتسع هذه الآفاق ما دام الشعر العربي بعيداً عن المسرح ، إذ الدرامة المسرحية هي المجال الذي يتسع لأخيلة الفحول من الشعراء فيفيضون فيها من آرائهم في الحياة وآرائهم في الفن وآرائهم في الجمال وآرائهم في السلوك ، ويبدعون ما شاءت لهم تلك الأخيلة من الصور التي يعالجون بها جراح الإنسانية ويهذبون بها انحرافاتها ... كل ذلك في الدرامة ... هذه القطعة الحية المتحركة فوق المسرح بأشخاصها الكثيرين ، ذوي المشارب المختلفة والميول المتباينة ، وبمناظرها الرائعة التي يكسبها الشعر جوها الساحر الجميل الخلاب ... نريد إذن أن يجد شعراؤنا وأن يوسعوا آفاقهم ، وأن يجعلوا للدرامة المنظومة شطراً كبيراً من جهودهم التي ينفقونها كلها في الهنات الهينات من قصائدهم وموشحاتهم التي شبعنا منها إلى حد التخمة ... ومعاذ الله أن يظن أحد أننا نعرض بأحد من شعرائنا أو من شعراء العالم العربي . . . فنحن إنما نتهم هؤلاء وهؤلاء بأنهم كسالى . . . وأننا حينما كنا ننقد شوقي ونهاجمه إنما كنا نتجنى على سيد شعرائنا غير مدافع ، وكنا نغمط حقه ونظلمه ... وإلا فأين من شعرائنا من استطاع أن يسمو إلى أفق شوقي أو أن يملأ هـذا الفراغ الهائل الذي تركه وراءه ؟

لا بد إذن أن ينفض شعراؤنا غبار هذا الكسل ، ولا بد أن يحاولوا مثل الذي حاوله شوقي من قبل ، والذي حاوله ، ونرجو أن يستمر فيه ، الشاعر الشاب الأستاذ محمود غنيم اليوم . فإن لم يفعلوا فلسوف يظل الشعر العربي جامداً في دائرته القديمة وهم بحمد الله لن يأتوا في حدود تلك الدائرة بعشر معشار ما أتاه الأولون من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين وأمويين وعباسيين وأندلسيين . ونحن إن كان لنا أمل في أحد من شعرائنا المصريين أو الشعراء العرب عامة ، فالشعراء الشباب هم مناط ذاك الأمل . وكم كنت أود أن أوثر الفريق الذي يجيد اللغات الأجنبية منهم على الفريق الآخر الذي لا يجيدها ، لو لم يبرز الأستاذ غنيم في الفريق الثاني ، فذهب بالفضل ، واستحق الثناء ، وجعلنا نتشوف إلى محاولاته التالية ... أما شعراؤنا الذين يجيدون إحدى اللغات الأجنبية ويقعد بهم الكسل دون محاولة النظم المسرحي، ففي مقدمتهم الشاعر الرقيق النابغة الأستاذ علي محمود طه ؛ ثم الأستاذ الشاعر المطبوع محمود الخفيف ، ثم الأستاذان أحمد فتحي ومختار الوكيل . ثم الشعراء الجامعيون وشعراء المهاجر ... إن هؤلاء هم المسئولون قبل غيرهم عن نهضة الشعر العربي وفتح الميدان المسرحي له على مصراعيه ، لأنهم أعرف من غيرهم بماهية المسرح وما يستطيع أن يؤديه للغة وللشعر من أمجاد ، وذلك أنهم تأثروا بروح الغرب وأساليبه ، تلك الروح العالية نلمسها في أشعارهم فنلمس فيها أثر برونتج وشلي وكيتس وبيرون ووردزورث ودي موسيه وليل وج . ب . روسو وليبران ... فتى يا ترى نلمس فيهم أثر بن جونسون وشيكسبير وراسين وكورنى ؟ إنهم يعرفون من تاريخ الآداب الأوربية كيف ثار الشعراء الإنجليز على القوافي الشعرية وكيف أقامت

عليهم عرائس القرائح بنعمة الشعر الحر التي اهتدى إليها مارلو الإنجليزي ، فأتى فيها بالأعاجيب ، وفتح باب جنتها الفيحاء لشيكسبير العظيم الذي ذلل قطوفها تذليلاً ... فمتى يثورون في الشعر العربي مثل تلك الثورة التي لا يحسن أن يقوم بها غيرهم ، لما تستلزمه من ذوق خاص أولاً ، ووقوف على تاريخ الآداب الأوربية ثانياً ، حتى يخطوا خطواتهم عن بصيرة وحسن دراية ، مهتدين في ذلك بما تم من مثله في الآداب الأخرى التي يثقفونها

أما شباب شعرائنا الذين لا يجيدون إحدى اللغات الأوربية بل لا يعرفونها ، فقد جنوا على أنفسهم وعلى ثقافتهم بإهمالهم تعلم إحدى تلك اللغات مع ما كانت تبذله لهم دار العلوم من العون والتشجيع . ولعل دار العلوم هي التي جنت عليهم في ذلك ، لأنها جعلت تعلم اللغة الأجنبية اختيارياً ولم تفرضه على أبنائها فرضاً ، ولو أنها قسرتهم على تعلمها لحمل أبناؤها اليوم عبء الثورة على تقاليد الشعر العربي العتيق ، ولأتوا في ميدان النظم المسرحي بالأعاجيب . على أنني لا أدري ماذا يمنع شعراء دار العلوم من الإكباب على لغة أجنبية يدرسونها ويثقفون آدابها . ولست أدري أيضاً ماذا يمنع هؤلاء الشعراء ، وفي مقدمتهم الأساتذة محمود حسن اسماعيل ومحمد عبد الغني حسن وأحمد مخيمر ومن إليهم من أن يحتذوا حذو الأستاذ غنيم في النظم المسرحي ؟ وللأستاذ محمد عبد الغني حسن إلمام لا يأس به بالإنجليزية ، فما له لا يساهم في النظم الدرامي بنصيب ؟

إننا حين نحاول سلك الأدب المسرحي في الأدب العربي ، لا بد لنا من خلق حركة أدبية إبداعية لا يحسن أن ينهض بها غير شعرائنا الشباب . والأدب الإبداعي (الرومانتيكي) هو أدب الخيال والجمال والسحر والشعر والخلق والابتكار ... هو الأدب الذي يلون الحياة ويمد في طرفها ويزيدها علواً وسفلاً ، ويجعلها أعمق وأوسع آفاقاً ... إنه الأدب الذي تتضافر فيه جهود الفنانين من شعراء وموسيقيين ومصورين ورسامين وصانعي ملابس ... إنه أدب الألوان والعواصف والبرق والرعد والدموع والعواطف والأشجان ... إنه الأدب الذي لا يجيده غير الشعراء الموهوبين الذين يستطيعون أن يخلقوا لنا دنيا أجل من الدنيا التي نعيش فيها ... دنيا ذات ألوان صارخة تتسع لأحلامنا التي تعجز عن تحقيقها في عالم الواقع ... دنيا من الشعر والموسيقا والغناء ... دنيا نتفيأ فيها ظلال الرحمة والمحبة والحنان كلما بهظتنا دنيانا الشقية بالآلام والنكبات ... دنيا نتنفس فيها صعداء ناعمين سعداء ، لا نخاف رهقاً ولا نخشى عنتاً ولا نفزع من شجو ولا نضيق فيها بأنفسنا كما نضيق بها في دنيا الواقع

إن القصائد والموشحات وحدها لا تستطيع أن تصنع لنا من ذلك كله إلا لحظة عابرة ثم نتردى من جديد في هوة آلامنا ... أما الدرامة المنظومة الإبداعية فكفيلة بأن تحملنا إلى السموات ساعات وساعات ، وكفيلة بأن تخفف من أعباء قلوبنا ، وما تنوء أرواحنا به من ضيق ... ما هذا ؟ أكلما أراد القارئ العربي المسكين أن يتسلى بشيء من الدرامة الإبداعية اضطر اضطراراً إلى اصطحاب شيكسبير ورهطه إن كان يحسن الإنجليزية ، أو راسين وكورنى إن كان يجيد الفرنسية ، أو سرفنتس ولوب دي فيجا إن كان ملماً بالإسبانيه ، أو شيلر ولسينج إن كان يعرف الألمانية ، أو يقعد حزيناً محسوراً إن كان لا يعرف لغة أجنبية ؟ ...

ألا إن هذا لهو أشنع الخزي في أدبنا العربي ، وفي شعرنا العربي بوجه خاص ... إننا لن نغتفر مطلقاً لأدبائنا الكتاب تقصيرهم في إمداد المسرح المصري بدرامات مصرية ، وإننا لن نغتفر مطلقاً لشعرائنا الكهول تقصيرهم في إمداد هذا المسرح بدرامات منظومة تغني الأدب المسرحي وتمد الأدب العربي بثروة طائلة لا تمد لها تلك الثروة التي تشبه الفقر من القصائد والمقطوعات والموشحات ... إننا نتساءل فيم أنفق شعراؤنا الكهول أعمارهم ؟ لقد أنفقوها في نظم القصائد والمقطوعات ، والقصائد والمقطوعات فحسب ... فلن تجد في دواوينهم التي تعد بالعشرات ملحمة تشجيك ولا قصة تصبيك ولا درامة تسليك ، ولا تمثيلية ، ولو من فصل واحد ، يوسّع بها أحد هؤلاء الشعراء حدود الشعر العربي في عصرنا الذي اتسعت فيه حدود كل شيء ... الحق أن حالة دواوين الشعر العربي محزنة جداً ، وهي محزنة بنوع خاص في دواوين شعرائنا المعاصرين الذين عرفوا أوربا وعرفوا الثقافة الأوربية والأدب الأوربي ... وإن مقارنة سريعة بين ديوان شاعر أوربي مثل بيرون أو روبرت برونتج وبين أي ديوان من دواوين شعرائنا ، (فحلاً أو نصف فحل أو إمعة !) لتظهرك على هذا الفقر الشنيع في إنتاجنا الأدبي ، وهو فقر يحس الإنسان منه الخزي الشديد ، فينصرفه